ماهو النقد ؟

بقلم جوليان بانذا

« تهمني الآثار * اكثر مما يهمني مؤلفها . كم اودّ ان تُقرأ آثاري كما لو انّها وُجدت من غير توقيع ، في زجاجة ملقاة في البحر. احبّ ان تكون هناك آثار لا نعرف شيئاً عن مؤلفيها : التوراة وملحمة هوميروس وقصيدة لوكريس وكتاب الاقتداء بالمسيح ومآسي شكسبير . »

هذه العبارة التي أعطيت موضوعاً للمعالجة في دار المعلمين العليا منذ سنوات توجز نظريتي في النقد . والواقع ان جميع الطلاب الذين تناولوا هذا الموضوع قد رفضوا هذا الرأي ، وكانوا يريدون ان تكون الآثار مرتبطة باشخاص يستطيعون ان يتحدثوا عنهم . والحق اننا نضع يدنا هنا على خطأ شائع في ايامنا هذه : فان الكثيرين يخلطون بين دراسة اثر فكري ودراسة مؤلف ، فبدلاً من ان يقوموا بنقد ادبي ، يقومون بدراسة نفسية . وهذا شديد الوضوح الآن بصدد الكتب التي تظهر عن « بروست » : فان المؤلفين يبرزون فيها موروثات الروائي ، والتربية التي تلقّاها، والوان تعاسته الجسمية،وساعة نهوضه في الصباح ، وساعة نومه ، والذين يعاشرهم ، وغرائبه في ارتداء الملابس ، وطعامه المفضّل...اما آثاره وقيمتها «في ذاتها » فالحديث عنها قليل : والحق ان دراسة هذه الآثار هي التي تشكل النقد الأدبي .

ورب معترض يقول : ان معرفة شخص المؤلف ضرورية لفهم تكوّن اثره . والحقيقة ان تكوّن اثرٍ ما شيءٌ ، وهذا الاثر مصنوعاً شيءٌ آخر . وان هذا الأثر المصنوع هو موضوع النقد الأدبي : تقييم هذا الاثر كحادث ادبي ، جمالي . وانا لا ادري ماذا يفيدني في تقييم رواية « سالامبو » ان اعرف ان فلوبير سقط من شاهق ، او في تقييم « تشايلد هارولد » ان اعرف ان بيرون كان يحب اخته من ابيه ؟

إن المسؤول الاكبر هنا هو سانت بوف الذي يهتمّ بأشخاص المؤلفين اكثر من اهتمامه بآثارهم ، وبالحادثة النفسية اكثر من اهتمامه بالحادثة الادبية إذا سمّيناها كذلك ، مستقلةً عن مؤلفها ، على ان من البديهي ان مأساة « فيدر » تعيش حياة ذاتية ، مستقلة عن حياة راسين . فلنتأمل بهذا الصدد المكان الذي يخصصه الناقد الكبير لأشخاص (نساء وقضاة وعسكريين وبلاطيين) لا اهمية لهم على الاطلاق من حيث القيمة الأدبية ولكنهم يوفرون له فرصة تصوير ووصف . والحق انه يُعنى بالآثار الكبيرة ، لعدد من كبار الادباء ، اقلّ من عنايته بمذكراتهم ومسوداتهم ورسائلهم الخاصة التي هي اشدّ تعبيراً عن نفسياتهم .

وهذا الاهتمام بتكوّن الأثر ، لا بالأثر المصنوع ، يؤكده مفكر فرنسي، غاستون باشولار Gaston Bachelard ، إذ يصرح في « الماء والاحلام L'Eau el les Rêves، بصدد الحديث عن قصيدة لادغار پو ، انه لا يهتمّ اطلاقاً بهذه القصيدة كما يراها تحت ناظريه ، وانما بالنشاط النفسي الذي ولّدها . كما وكّده اندريه جيد اذ صرح ان الذي يعنيه انما هو الانفعال الذي خلق الاثر ، لا التعبير عنه ، هذا التعبير الذي يبدو له شيئاً ميتاً ، اذ هو شيء مجمّد . والحق ان هذا «الشيء المجمّد» هو الذي يكوّن الأثر ، والنقد انما هو درسه وتمحيصه. اما الحركة التي تحمل على الاهتمام بالاشخاص اكثر من الاهتمام بالآثار فان سببها بسيط جداً ، وهو ان الاشخاص اكثر تسلية ،وان الجماهير تريد ان تتسلى . ويبقى ان نعرف اذا كانت مهمة الناقد ان يتبع الجماهير ويسايرها . إن نفسية مؤلف ما ، تحليل نفسيته ، امر عظيم الاهمية . ولكني اقول إن النقد الأدبي امر مختلف تماماً عن ذلك،واثور ضد الخلط الذي يقعون فيه بهذا الصدد.

ذكرت ان الذين تحدثوا عن بروست يتكلمون عن الرجل ، وقلما يتكلمون عن آثاره . وهم اذا تكلموا عنها ،فلكي يرفعوها الى السماء . وهنا نعرض لآفة اخرى من آفات النقد المعاصر : هي الحديث عن بعض المؤلفين المعاصرين بلهجة تقريظ وغناء ، مع رفض النظر الى نقائصهم التي ليسوا هم منزهين عنها ، مهما بلغوا من العظمة : ككلوديل وفاليري وبيغي . واحسب ان جميع القراء يقرونني على ان التقريظ ليس هو من النقد .

وهناك مفهوم للنقد يلقى نجاحاً كبيراً في الوقت الحاضر، ويبدو لي انه مخطىء تماماً ، على الاقل في الصورة المجرّدة التي يتلبّسها ، وهو المفهوم الذي يذهب الى القول بان على الناقد ان « يتلاءم » و « يشارك » المؤلف الذي ينقده ، وهذه

* انظر العدد ١٧ من مجلة La Nouvelle Nouvelle Revue Francaise

نظرية يعرضها بوضوح كلٌّ من شارل ديبو Charles Du Bos ، وغبريال مرسيل Gabriel Marcel وتيبوديه Thibaudet . وانا اقرّ — وان كان هناك مجال للمناقشة — ان على الناقد ان « يبدأ » بهذه المشاركة ؛ ولكنني ارى ان عليه بعد ذلك ان «يخرج منها» ليرتفع فوق اثر المؤلف ويحكم عليه. واحسب ان ديبو ورفاقه يردون بان هذا الأمر الثاني ليس الا امتداداً للأول . وهذا ما انكره انكاراً تاماً ؛ فانا ارى بصورة عامة ان التفكير بالحياة ليس هو إطلاقاً الامتداد الطبيعي للحياة، ولكنه نشاط من طبيعة اخرى.

وقد يسأل سائل : « كيف تشرح هذه الظاهرة في ان يكون بعض المؤلفين ، ولا سيما الشعراء ، نقّاداً ممتازين ؟ » ويُذكر هنا اسم بودلير على سبيل المثال ؛ فأجيب بكل بساطة إن بودلير قد اوتي هذه الميزة بان يجمع موهبة الشعر الى موهبة النقد، وهذا ما لا يمنع ان تكون هاتان الموهبتان متميزتين تماماً .

واعتراض آخر اهمّ : « إنك اذ تفرق بين المؤلف والناقد تقرّ بان نشاط الناقد ليس خلاّقاً » ، والحق ان نشاط الناقد يستطيع ان يكون خلاّقاً « كناقد » ؛ فبوسعه ان يُريك اثراً معروفاً جداً من زاوية جديدة تماماً ، وان يضع يدك على صلات لم تكن تعرفها بين آثار مختلفة ، وهذا هو شأن « النقد المقارن » الذي يبدو لي ارفع الوان النقد .

ولا بدّ هنا من مناقشة قول «ديتوش» Destouches المنسوب خطأ الى بوالو : « إن النقد يسير والفن عسير » . والحقيقة ان النقد ليس يسيراً على الاطلاق وانه يتطلب استعداداً نادراً جداً . والملاحظ ان الفنانين الكبار كثيرون جداً ، كالشعراء والرسامين والموسيقيين ، وان كانوا لا يملأون الشوارع ... اما النقاد الكبار ، فمعدودون على الاصابع ، منذ وجد النقد.

وهذا شكل آخر من النقد الذي يتذوقه الناس كثيراً ، ولكنه يبدو لي غير ذي قيمة ؛ وهو ما ادعوه « بالنقد العاطفي، الذي هو عبارة عن تقديس » مبالغ فيه لكاتب كبير يصبح تحت يد الناقد بمنجى من كل نقد صحيح .

واود اخيراً ان اشير الى مزيتين احسب انهما ضروريتان للناقد الحقيقي. اولاهما تتضح من مقارنة مع عبارة قالها لوسيان دو ساموسات Lucien De Samosate عن المؤرخ : « عليه الاّ يكون له وطن ابداً ؛ عليه ان يرتفع الى الحقيقة من فوق حبه لأمته » . وكذلك اقول إن على الناقد الحقيقي ان يبحث عن الحقيقة وهو ينفصل عن حبه وكلفه بعصره . والواقع ان الناقد اليوم لا يتولى فقط عن هذا الانفصال ، بل هو يجد فيه نقيصة ؛ وقد قرأت اخيراً قول احدهم إن مالرو هو اكثر الكتاب « معاصرة » . وهذا في رأيي مقياس خاطيء لتقييم الادباء . ولنذكر بهذه المناسبة مأخذاً ينبغي ان يوجّه للنقد . فإنهم ينعون عليه دائماً انه لم يكتشف رجالاً عظاماً في اوقاتهم : كبودلير وفرلين وابولينير ورامبو ومالارميه ؛ ولكنهم ينسون ان النقد نصب تماثيل لآلهة مزيفة امثال دوليل ودولافيني وهرفيو وبورتوريش وهنري باتاي وسواهم . إن على النقد ان يحصن القيمة الحقيقية للآثار من اهواء الجماهير ؛ والواقع انه يتملق اليوم هذه الاهواء بدلاً من ان يقف في وجهها . وانا اذكر هنا قول باريس Barrès : « إن بعض الاشخاص يصلون الى اعلى المراتب ، لا لأن كفاءتهم تدفعهم اليها ، ولكن لأن من الضروري ان تُشغل هذه المناصب » ولهذا نجد في ايامنا كثيرين يقارنون بفلوبير وبلزاك وديكارت وكانت ، لأنه « يجب » ان يكون لهذا الجيل روائيوه وفلاسفته الكبار . . وإن من مهمات الناقد اليوم ان يفضح هذا المفهوم الخاطيء .

ثم إن احترام الناقد لتقييم الجماهير يلبس شكلاً آخر ارى فيه الحكم بالاعدام على النقد . فهناك نقاد يعتقدون ان مقياس نجاح اثر ما هو سعة انتشاره. وهذا لون منحطّ جداً من الوان النقد . إن على النقد ان يقيم تقديره على مقياسٍ شرطه الاول ان يكون مستقلاً عن موافقة الجماهير او استنكارها .

والمزية الثانية التي ينبغي ان يتحلى بها الناقد ، وهي قريبة من الاولى ، هي النزاهة والتجرد في النقد ، مقابل الاستجابة للمزاج الشخصي . وليس نادراً ان نسمع من يفخر ويتبجح بأنه انما يقيّم الآثار وفقاً لتأثراته الشخصية ؛ والحق أن على الناقد ان يتجاوز شخصه حين يريد ان ينقد . وقد ضرب لنا جول لوميتر Jules Lemaître مَثَلاً طيباً في ذلك حين نقد آثار اميل زولا فبدأ بالقول انه لا يكره شيئاً كما يكره فن هذا الروائي ، وانه مع ذلك سيجهد في كبح جماح هذه الكراهية وفي تناول آثاره بالتجرد والنزاهة . وقد كتب في الواقع ثلاث مقالات رائعة في تفهمها وعدالتها . وانا احسب ان الناقد لا يستطيع دائماً ان يستوحي حرية فكر كهذه الحرية ؛ فمفهوم ان التجرد الكلي مستحيل ، وان اسقاط الذاتية من النقد ليس الا شيئاً مثالياً ؛ ولكن ينبغي مع ذلك ان يجهد الكاتب في هذا السبيل ، بدلاً من ان يرفض المبدأ ويتبجح بالذاتية.

ترجمة « الآداب »